الافتتاحية

«يا له من سؤال رائع يا رام!»

وسيم الكردي

نشرت «رؤى تربوية» في عددها الأخير مقالة للقاص ومعلم اللغة العربية «زياد خدَّاش»، وقد حدث ذلك بعد إلحاح طويل؛ كنت دائماً أشاكسه قائلاً: بإمكانك أن تكتب تجربتك أو «تكتب عنها أو تكتب فيها كما تشاء!». لقد كان لديَّ إحساس بأنها تجربة جديرة بالاهتمام! فزياد كاتب مغامر في كتابته القصصية الإبداعية، فهو يلج القضايا بمكر وجرأة وبتجاوز للمتعارف عليه! وكنتُ من باب الفضول أولاً أود التعرف على خبايا تجربته في التعليم؛ تلك المحاطة بأسوار المدرسة وجدران حجرة الصف. هل هي تجربة منغلقة ومقيدة ضمن أطر تقاليد التعليم المسيطرة في بلادنا أم أنها تتخذ منحى آخر كالمنحى الذي تتخذه كتاباته الأدبية؟

كان هذا التساؤل لديَّ لأنّ انطباعاً اجتماعياً سائداً يرى في أن المعلمين، في معظمهم، أكثر ميلاً للإخلاص لتراث معلميهم ومحاكاة طرائقهم وأساليبهم، وقليلاً ما يحدث أن يتجاوز المعلمون ما ألفوه من معلميهم حين كانوا طلاباً، وبخاصة معلمي اللغة العربية، حيث أن انطباعاً تكوَّن بأن معلمي اللغة العربية أشد التصاقاً وانحيازاً لتدريس اللغة ضمن الوسائط التقليدية المتعارف عليها، وقلما نجد معلماً في هذا المجال قادراً على تجاوز هذه التقاليد الراسخة. وهذه القلة يشير إليها عدد من الكتّاب بمدى تأثيرها عليها وعلى توجههم نحو الكتابة الإبداعية لاحقاً. ولم تفلح المحاولات في ثنيه عن عدم رغبته في الكتابة في هذا الموضوع أو ربما كسله! فالكاتب القصصي لا يريد أن يكتب إلا في حقل الكتابة الإبداعية، أما ما أطلبه منه، فقد يكون راغباً دوماً في التخلص منه لما قد يراه من تعارض جوهري ما بين التعليم كنظام مكرس، وما بين الأدب كمحلِّق في فضاءات تتجاوز حدود التلقين والتقليد والمحاكاة والاحتذاء! وقد مللت منه! وربما ملَّ من إلحاحي عليه أيضاً! ولذلك توقفتْ.

وبعد عدة أشهر كتب زياد مقالته التي نشرت في العدد الماضي. وقد يتساءل البعض لماذا اهتممت بهذه المقالة، وأخصص لها هذه المساحة. إن لذلك عدة أسباب؛ أولها، لأنها مقالة بسيطة في ظاهرها يسرد من خلالها الكاتب جزءاً من تجربته في سياق عملية التعليم. وثانيها، أنها تعبر بعمق عن الكيفية التي يعيد فيها معلم النظر في عمله والتأمل فيه، وما يحدثه ذلك من تغيرات في أدائه. وثالثها، أنها تمزج بشكل معمق ما بين الانفعالي والعقلي لدى المعلم حين يعيد التساؤل بخصوص ممارسته مهنته. ورابعها، أن هذه التجربة ليست تأملاً برانياً لما يحدث في غرفة الصف، بل تتمازج فيها المواقف والمشاعر ضمن لغة تأخذ بعين الاعتبار ردود أفعال التلاميذ النفسية والعقلية، وتستجيب لهذه الأفعال.

حين قرأت هذه المقالة، تبادر لي أول ما تبادر حقل «البحوث الإجرائية» أليست هذه التجربة هي جوهر البحوث الإجرائية بصرف النظر عن التوجهات والطرائق والآليات؟ أليست هي تجربة في البحوث الإجرائية التي يهتم بها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي؟ أليست تجربة أصيلة في هذا المجال من قبل معلم لم يقرأ حرفاً واحداً من أدبيات البحوث الإجرائية؟ ولكنه استطاع عبر مقالة بسيطة أن يضع كل عالم البحوث الإجرائية في سياق تربوي يجسد قيمتها المعرفية والتطبيقية.

فما الذي يدفع بمقالة من هذا النوع لكي تكون جوهرياً بحثاً يقع في صلب البحوث الإجرائية؟ إن تأملاً في المقالة سيضعنا تماماً

أمام تلك العمليات التي انشغل بها المعلم وما أفضت إليه من قناعات جديدة وممارسات جديدة أيضاً.

ولكي نقترب أكثر من التصور المقارب للبحوث الإجرائية الذي اتخذته المقالة، فلا ضير من التذكير بجوهر البحوث الإجرائية على اختلاف طرائقها وتنوع مساراتها وتعدد فلسفاتها، إن جوهر البحث الإجرائي يقوم على سلسلة من العمليات المتداخلة التي يمر بها المعلم لتطوير أدائه أو تغييره أو تصويبه أو الإضافة إليه. فهي عمليات متداخلة وليست خطية، وهي تشتمل على مراجعة لما يقوم به المعلم، وما تفضي إليه هذه المراجعة من تسليط للضوء على حالة ما، ومحاورتها إلى أن تفضي إلى تصور جديد قابل للتجريب وقابل للنظر فيه خلال التجريب وبعده، وفي ضوء ذلك يقرر المعلم الاستمرار أو التغيير، وهنا سيعود ثانية إلى مراجعة جديدة للممارسة الجديدة التي باتت هي الممارسة الحالية.

لقد بدأ زياد مقالته بتناول الكيفية التي درّس فيها «التعبير» للمرة الأولى، وكيف أنه حاكى أستاذه في التدريس، ليس ذلك فقط، بل رأى التشابه فيما بينهما فيما يخص مشاكلهما الاقتصادية والاجتماعية أيضاً. كما أنه أشار إلى حالته النفسية التي لا ترى سوى الممل في الحصص المدرسية.

وهكذا، فهو يقلد ويحاكي تجربة سابقة لا يسائلها ولا يفكر فيها، بل يطبقها كما عرفها، وفجأة يتغير ذلك كله! ما الذي يدفع إلى ذلك؟ إنه سؤال ينهض من قبل أحد تلامذته ليواجه به معلمه! فالطالب (رام) يسأل معلمه: «لدينا أربعة فصول: الخريف، والشتاء، والربيع، والصيف. لماذا لا يوجد فصل خامس؟» جاء السؤال بعد أن طلب منهم المعلم قائلا: «اكتبوا عن الفرق بين الشتاء والصيف». إن السؤال أعاد إلى المعلم تفكيره بعمله الروتيني الذي يقوم به! بدأ يتأمله، ويعيد النظر فيه! واتخذ هذا التأمل نوعاً من الاشتباك الداخلي لدى المعلم! فقد بدأ صراع ينشأ ما بين شخصيتين في داخل المعلم؛ الأستاذ المترهل القديم والكاتب الحساس المتفتح. وقد أفضى هذا الاصطراع إلى نشوء شعور بالحيرة والتمزق، إلا أن هذه الحالة لم تستمر طويلاً، وينهض المعلم من حالته ليبدأ في ممارسة جديدة مختلفة ومغايرة لما اعتاده وما اعتادوه. وحينما اشتغل بهذه الصورة المختلفة تجلى فيه ذهول واندهاش، انبعثا من «أسئلة» تلاميذه! هذه الأسئلة التي لم تكن متاحة، وربما لم يكن يعتقد بوجودها! فالسياق الجديد الذي وضعه أفضى بالتلاميذ إلى طرح أسئلة من طراز جديد، وأخيراً فإن المعلم يكتشف تلاميذه وطاقتهم وحيويتهم وقدرتهم على التخيل والتحليق! وقد كان هذا المدخل الجديد لعلاقة جديدة ما بين التلاميذ والتعبير، لقد دخلوا في فضاء جديد، ودخل هو في فضاء جديد أيضاً! لم يعد الآن من الممكن التراجع، فقد بات يعرف طلابه أكثر كما اكتشفوا فيه أيضاً ذلك المعلم المختفي داخل هيئة المعلم التقليدي. لقد نبش ذاته، وأعاد تشكيلها، فتراءت له إمكاناته التي لم يكن يضعها في سياق عملها، كان دائماً يستبعدها، أما الآن، وقد تحرر من إساره، فهو قادر على التحليق مع طلابه! وهنا بدأ كل شيء يتغير؛ لقد باتت الحصة ممتعة، وأخذ يدرك بأن لدى تلاميذه ما يستحق التقدير، وأن بإمكانه أن يضيف خبرة جديدة له ولهم. فقد عاد لهم «بهيئة جديدة وروح مختلفة». وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه تصور لكيفية تدريس الكتابة الإبداعية، فإنه قد بدأ وشرع في عمل مختلف، وقتها، فقط، لم يشرع التلاميذ في كتابة نصوص من نوع مختلف فقط، بل أخذ، هو أيضاً، يكتب نصه معهم، وفي الوقت نفسه..

إن هذه التجربة، وعلى الرغم من أن ساردها يدخل فيها، وهو الكاتب القاص، فإن المعلم الذي يتخذ لنفسه مساراً آخر هو الأساس، لقد وظّف خبرته في الكتابة الإبداعية، ليس على مستوى الكتابة، بل، على مستوى الرؤية، إن جوهر هذا التغير قام أساساً على رؤية شخصية للذات التي لا يمكن للمرء أن يصلها دون تأمل لما قام أو يقوم به. إن سؤال (رام) أتاح له أن يعيد تشكيل الرؤية، أما أسئلة التلاميذ الآخرين وكتابتهم التالية أتاحت له استكشاف الجدوى، وتحقيق المتعة والرغبة في الاستمرار، ولكن بصورة مغايرة.

إن هذه المقالة، وما عبرت عنه من تجربة، تشكّل إطاراً خاصاً في التعبير عن تجربة من قبل المعلم الذي كتبها، ولكنها في الوقت نفسه تقدم مؤشراً لما يمكن أن يقوم به معلمون آخرون أيضاً، إذن فتجربة الكتابة عملية ممكنة ومتاحة لكل معلم، ولا تحتاج إلى كثير من الجهد، بل تحتاج إلى تلك المسافة التي يتوقف عندها المرء محاولاً النظر فيما يقوم بعمله! إن كل معلم يستطيع أن يقرر بأنه قد حان الوقت لي كي أنظر في عملي، وإذا حدث ذلك في المرة الأولى، فإنه سيحدث دائما! وهذا هو الذي سيعطي معنى لعمله وقيمة لذاته، فهو يستطيع أن يشق طريقاً خاصاً ومختلفاً، ويستطيع أيضاً أن يمنح طلابه فرصة أن يروا الأشياء بشكل مختلف، وأن يعبروا عن عوالمهم بصورة تمنحهم ثقة أكبر بأنفسهم وبإمكاناتهم في تعميق تجاربهم.